تفسير ابن كثير

قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد ا عن عمه محمد بن مسلم الزهري أخبرني عبد الرحمن بن عبد ا بن كعب بن مالك أن عبد ا بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم في غزوة تبوك فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم في غزوة غزاها قط إلا في غزاة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها وإنما خرج رسول ا صلى ا عليه وسلّم يريد عير قريش حتى جمع ا بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول ا صلى ا عليه وسلّم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر وكان من خبري حين تخلفت عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة وا ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة وكان رسول ا صلى ا عليه وسلّم قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول ا صلى ا عليه وسلّم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز واستقبل عدوا كثيرا فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فأخبرهم وجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول ا صلى ا عليه وسلّم كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحي من ا D وغزا رسول ا صلى ا عليه وسلّم تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر فتجهز إليها رسول ا صلى ا عليه وسلّم والمؤمنون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئا فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر بالناس الجد فأصبح رسول ا صلى ا عليه وسلّم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئا ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فألحقهم وليت أني فعلت ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول ا صلى ا عليه وسلّم يحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن عذره ا D ولم يذكرني رسول ا صلى ا عليه وسلّم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك : [ما فعل كعب بن مالك] فقال رجل من بني سلمة : حبسه يا رسول ا برداه والنظر في عطفيه فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت وا يا رسول ا ما علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول ا صلى ا عليه وسلّم .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول ا A قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول ا A قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا فأجمعت صدقه فأصبح رسول ا A وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فيقبل منهم رسول ا A علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى ا تعالى حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي [تعال] فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : [ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرا] فقلت يا رسول ا إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكني وا لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن ا أن يسخطك علي ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه إني لأرجو عقبى ذلك من ا D وا ما كان لي عذر وا ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال : فقال رسول ا A : [أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي ا فيك] فقمت وقام إلي رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي : وا ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول ا A بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول ا A لك قال : فوا ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي قال ثم قلت لهم هل لقي معي هذا أحد ؟ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت فمن هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة قال : فمضيت حين ذكروهما لي قال ونهى رسول ا A المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد وآتي رسول ا A وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي أحرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي فإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوا ما رد علي السلام فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك ا هل تعلم أني أحب ا ورسوله ؟ قال فسكت قال فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فسكت فقال ا ورسوله أعلم .

قال ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاء فدفع إلي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا فإذا فيه : أما

بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن ا لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك قال : فقلت حين قرأته وهذا أيضا من البلاء قال : فتيممت به التنور فسجرته به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول ا A يأتيني يقول : يأمرك رسول ا A أن تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها قال وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك قال فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي ا في هذا الأمر ما يشاء قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول ا A فقالت : يا رسول ا إن هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال [لا ولكن لا يقربنك] قالت وإنه وا ما به من حركة إلى شيء وإنه وا ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول ا A في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت وا لا أستأذن فيها رسول ا A وما أدري ما يقول فيها رسول ا A إذا استأذنته وأنا رجل شاب .

قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر ا تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك قال : فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج من ا D بالتوبة علينا فآذن رسول ا A بتوبة ا علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إلي رجل فرسا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته وا ما أملك يومئذ غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول ا A وتلقاني الناس فوجا فوجا يهنوني بتوبة ا يقولون ليهنك توبة ا عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول ا A جالس في المسجد والناس حوله فقام إلي طلحة بن عبيد ا يهرول حتى صافحني وهنأني وا ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب : فلما سلمت على رسول ا A قال وهو يبرق وجهه من السرور [أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك] قال : قلت أمن عندك رسول ا أم من عند ا ؟ قال [لا بل من عند ا] قال وكان رسول ا A إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول ا إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى ا وإلى رسوله قال [أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك] قال : فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر وقلت يا رسول ا : إنما نجاني ا بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت قال : فوا ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه ا من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول ا A أحسن مما أبلاني ا تعالى وا ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول ا A إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني ا D فيما بقي .

(قال) وأنزل ا تعالى : { لقد تاب ا على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من ا إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن ا هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا وكونوا مع الصادقين } إلى آخر الايات قال كعب : فوا ما أنعم ا علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول ا A يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه فإن ا تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال ا تعالى : { سيحلفون با لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن ا لا يرضى عن القوم الفاسقين } قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول ا A حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول ا أمرنا حتى قضى ا فيه فلذلك قال D { وعلى الثلاثة الذين خلفوا } وليس تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الاية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها كما رواه الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد ا في قوله تعالى : { وعلى الثلاثة الذين خلفوا } قال : هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد وكلهم قال مرارة بن ربيعة وكذا في مسلم ابن ربيعة في بعض نسخه وفي بعضها مرارة بن الربيع وفي رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع كما وقع في الصحيحين وهو الصواب وقوله فسموا رجلين شهدا بدرا قيل إنه خطأ من الزهري فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرا وا أعلم .

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت أي مع سعتها فسدت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون فصبروا لأمر ا واستكانوا لأمر ا وثبتوا حتى فرج ا عنهم بسبب صدقهم رسول ا A في تخلفهم وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب ا عليهم فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم ولهذا قال { يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا وكونوا مع الصادقين } أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم ومخرجا وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد ا هو ابن مسعود Bه قال : قال رسول ا A : [

عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند ا صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند ا كذابا] أخرجاه في الصحيحين وقال شعبة عن عمرو بن مرة : سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد ا بن مسعود اتقوا آمنوا الذين أيها يا } شئتم إن اقروءا هزل ولا جد منه يصلح لا الكذب : قال أنه Bه ا وكونوا مع الصادقين } هكذا قرأها ثم قال فهل تجدون لأحد فيه رخصة وعن عبد ا بن عمرو في قوله { اتقوا ا وكونوا مع الصادقين } قال مع محمد A وأصحابه وقال الضحاك مع أبي بكر وعمر وأصحابهما وقال الحسن البصري إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة